مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية
مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية التربية الأساسية – جامعة بابل

خطاب القرآن الى أئمة الطغيان

آلاء خرِيبُط عبيد الحِميريّ
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة بابل

The Qur'an's Speech to the Imams of Tyranny

Alaa Kharibet Al-Humairi
College of Islamic Sciences / University of Babylon
poi098.098yf@gmail.com

الملخص:

يحفل القرآن الكريم بأنواع مختلفة من الخطابات، منها الخاص ومنها العام، ومنها ما كان موجه من قبل الله عز وجل الى المؤمنين، ومنها ما كان موجه الى الكافرين ومنها ما كان خطابات بين المؤمنين والكافرين كخطابات الرسل مع أقوامهم، والذي أهتم به البحث هو خطاب الله عز وجل لأئمة الطغاة وقاداتهم.

ومن هذه الخطابات ما كان موجهًا الى رئيس الطغاة والعصـــيان الخارج عن رحمة الله ابليس، كذلك الخطاب الموجه الى فرعون، ومنها الخطابات التوبيخية الموجهة الى الكفار.

الكلمات المفتاحية: اساليب الخطاب، الطغاة، ابليس.

Abstract

The Holy Quran is full of different types of addresses, some specific and some general. Some of them were directed by God Almighty to the believers, some were directed to the unbelievers, and some were addresses between believers and unbelievers, such as the addresses of the messengers to their people. What the research focused on is God Almighty's address to the imams and leaders of tyrants.

Among these speeches were those directed to the leader of tyrants and rebels who disobeyed God's mercy, Satan, as well as the speech directed to Pharaoh, and the rebuking speeches directed to the infidels.

Keywords: Speech styles, tyrants, Satan.

مقدَّمة

بسـم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مخلو من نعمته، ولا مأيوس من مغفرته، والصلاة والسلام على خير المرسلين وآله، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعدُ..

يمتاز القرآن بمخاطبة العقول والقلوب بأسـاليب مختلفة مسـتخدما اسـاليب اللين والعطف تارة، واسـاليب التوبيخ تارة اخرى مبشـراً ومهددًا، ونلحظ خطابًا قاسـيًا موجها الى الطغاة والكفار في سـبيل انفتاح منافذ المعرفة لديهم فيحيدوا عن طريق الظلال الى طريق الحق والهدى، فكثيرًا ما كانت تلك الخطابات جدلية ومناظرات

يسـودها طابع العناد والتكبر وعلى رأس تلك الخطابات خطاب الله عز وجل لأبليس وخطابه للكفار. لذلك ارتأى البحث الى سبر غوره من أجل الكشف عن تلك الخطابات الموجهة الى أئمة الطغيان.

أهمية البحث:

للخطاب أهمية كبيرة في القرآن الكريم، فهو يسـاعد على فهم الطبيعة البشـرية كما يسـاعد على تربية النفس البشـرية من خلال اعطاءها دروس قيمة وذات أهمية كبيرة كالطاعة والتواضـع وعدم التكبر والغرور، وتحذير من الشـر الذي ينتج نتيجة عدم الاخذ بهذه الدروس، كذلك ليعرف الانسـان عظمة الخالق وتفوقه على كل الموجودات، كخطاب الله لفرعون الذي كان يعتبر نفسه إلهًا.

منهجية البحث : وتتلخص المنهجية المتبعة ، بما يأتي :

أن المنهج المتبع في هذه الرسـالة هو المهنج التحليلي، القائم على تجزئة وتقسـيم الموضـوع الى عناصـره الأولية من خلال عرض الآيات القرآنية التي تناولت آيات خطاب الله –عز وجل–للطغاة.

المبحث الأول: التعريف بالمصطلحات

المطلب الأول/ مفهوم الخطاب لغة واصطلاحًا:

أولاً/ الخطاب في اللغة:

الخطاب مراجعة الكلام والخُطبة: مصـدر الخطيب. وخطب: الخَطْب: سَـبَبُ الأمر. وجمع الخطيب خُطَباء، وجمع الخاطِب خُطّاب وكان الرجل في الجاهلية إذا أراد الخِطبة قام في النادي فقال خِطْبٌ[١]. خطب الرجل على الْمِنْبَر يخْطب خطْبَة، وَالْجمع خطب، وَهُوَ اسْم كَلَام الخطباء[٢].

ثانيًا/ الخطاب في الاصطلاح:

قد قيل فيه: هو "الكلام الذي يفهم المستمع منه شيئاً. والحق أنه اللفظ المتواضَع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"[٣].

يتفق التعريف اللغوي مع التعريف الاصطلاحي في أن الخطاب هو الكلام الذي يقال بقصد الافهام.

المطلب الثاني/مفهوم الإمام لغة واصطلاحًا:

أولًا/الإمام في اللغة:

أئمة جمع إِمامُ الَّذِي يُقْتَدى بِهِ، وأَصله أَأْمِمَة، عَلَى أَفْعِلة، مِثْلَ إِناء وآنِيةٍ وإِلَه وآلِهةٍ[٤].

ثانيًا/ الإمام في الاصطلاح:

الإمام "هو الذي له الرياسة العامة في الدين والدنيا جميعا"[٥].

وبذلك فالإمام هو الشخص الذي يُقتدى به في الدين والدنيا.

المطلب الثالث/مفهوم الطغيان لغة واصطلاحًا:

أولًا/الطغيان في اللغة:

الواوُ لغةٌ فيه، وقد طَغَوْتِ وطَغْيتُ، والاسم الطَّغْوَى. والطَّاغِيةُ: الجبار العنيد، وكل شيء يجاوز القدر فقد طَغَى مثلَ ما طَغَى الماءُ على قَوْمِ نُوْحٍ، وكَمَّا طغتِ الصَّيحةُ على ثَمُودَ[٦].

ثانيًا/ الطغيان في الاصطلاح:

الطغيان: "مجاوزة الحد في العصيان"[٧].

يتفق التعريف اللغوي مع التعريف الاصطلاحي في ان الطغيان مجاوزة الحد في القدر والعصيان.

الطغيان في الاستعمال القرآني

أما في القرآن الكريم فهو على أربعة أوجه أيضًا:

الأول: الضلال؛ قال الله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٨]، أي: في ضلالهم يتحيرون، ويجوز أن يكون أراد أنهم يتحيرون فيما هم فيه من مجاوزة الحد في التمرد؛ وتحيرهم فيه لأنهم لا يعرفون وجه قباحته، والمتحير غير عارف لوجه أمره والعمد التحير[٩].

الثاني: جاوز الحد في الكبر أو الظلم والغشم قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[١٠] يعني عصى الله. وقال: ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾[١١].

الثالث: الارتفاع ومجاوزة الحد في الكثرة؛ وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[١٢] أي: حملنا آباءكم على حسب ما يقال لبني شيبان: اليوم أنتم أصحاب يوم ذي قار[١٣].

الرابع: الخطأ؛ قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[١٤]أي: ما يمل ولم يخطئ في الرؤية، وقيل: ما عدل وما جاوز القصد في رؤيته؛ يعني: جبريل عليه السلام، وزاغ: مال وعدل، وقيل: (مَا زَاغَ) ما قصر عن شيء رمى إليه ببصره،: (وَمَا طَغَى) ما طلب أن يجاوز ما رآه إلى غيره[١٥].

المبحث الثاني

خطاب القرآن الى أئمة الطغيان

المطلب الأول/

أولا: اسلوب الخطاب القرآني

يعد الخطاب القرآني من الناحية الشكلية عرضاً شفوياً لا تظفر فيه الفكرة بالزمن المادي الكافي، لتحقيق الدقة المنطقية التي نلمسها في الأسلوب المكتوب. والأسلوب الخطابي عموماً عرضة لزلات اللسان، على حين يقل تعرض الأسلوب المحرر للأخطاء العلمية، لأن لدى الكاتب فرصة (ليغمس القلم في الدواة سبع مرات)، قبل كتابة الفكرة[١٦].

وان الأسلوب القرآني يركّز على السمة الإنسانية الشاملة، فيما يعبّر عنه من الموضوعات والمعاني ويحاذر أن يأتي في خطابه للناس أو في شيء من تعليقاته على الأحداث، بما ينبّه فكر القارئ إلى خصوص إقليم أو عرق أو بيئة أو جماعة معينة من الناس، فالخطاب القرآني يتجه إلى المخاطبين، مستعملا كلمة: بني آدم، أو الناس، أو المؤمنين. ولم ترد ولو مرة كلمة العرب أو قريش. أو أهل كذا، أو ما يشابه ذلك من صيغ الخطاب الخاصة بفئة معينة من الناس. ومن أمثلة الخطابات القرآنية قوله تعالى ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[١٧]فهو خطاب تحذيري الى الناس ككل[١٨].

كما أن القرآن الكريم يخاطب القلب البشري، خطاب العليم الخبير، المطّلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها، العارف بطبيعتها وتكوينها، وما يستكنّ فيها من مشاعر، وما يعتريها من تأثّرات واستجابات. في جميع الأحوال والظروف[١٩]. حيث تخاطب الصورة في القرآن الكريم الكينونة الإنسانية، بما فيها من نفس وتعزف على خطوطها المتقابلة، لبناء الإنسان المتوازن، وفق التصور الإسلامي. وتخاطب العقل، وتوقظه بأساليب شتّى كالجدل، والحوار، والمناظرة، ولفت انتباهه إلى الكون والحياة والإنسان، ليتأمل، ويتفكر، ويتدبّر.

وتخاطب الحس الإنساني، وتلبّي حاجته بالمشاهد المحسوسة، وتتّخذها وسيلة للمعرفة الدينية.، وتلبّي حاجات هذه الكينونة بالغذاء المناسب لها، بتناسق وترابط، لكي لا يطغى جانب على آخر.

ولكن ليس معنى هذا أنّ الصورة تخاطب كلّ جانب في الإنسان على حدة، بل إنّها تخاطب الكينونة موحّدة بما فيها من نفس وعقل وحس. وبذلك يتهيّأ الإنسان لكي يستقبل الخطاب القرآني، وتتفتح منافذ المعرفة لديه.

والعقل به يتميز الانسان على غيره من المخلوقات لذلك فهو من أكبر نعم الله على الإنسان، وعن طريقه تمكن من تسخير المادة لتحقيق حياته وسعادته، وهو كذلك أحد منافذ المعرفة، لأنه وسيلة الإدراك والتمييز بين الأشياء. وقد خاطب القرآن الكريم عقل الإنسان، وحثّه على التأمل والتفكير، حتى يصل إلى المعرفة الحقّة في الإيمان بالله، وتوحيده. إلا ان العقل وحده يضلّ الطريق، إن لم يعتمد على هدي الوحي، فالعقل له مجاله المحدود، وهو ما يقع عليه نظر الإنسان، ويقع تحت حواسه، أما ما عدا ذلك فلا بدّ من الاهتداء بالوحي، لمعرفة ما وراء المحسوس من عالم الغيب[٢٠].

ان الخطاب القرآني يعمل على بناء وتشكيل العقل المسلم بملامح واضحة ومحددة وعندها فقط يطالب بحرمتها وحفظ ملامحها من الانتهاك والتأمين عليها من كل مؤثر خارجي وان الخطاب القراني لم يأت بشكل عمومي يحفظ للعقل الانساني حرمته، بعيدا عن حفظ ملامحه المشكلة مسبقًا[٢١].

وقد تعددت أوجه اساليب الخطاب القرآني بحسب المخاطب وطبيعة الموقف منها:

خطاب التهكم، كما في قوله تعالى:﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[٢٢].

وخطاب الكرامة، كما في قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُــولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَــارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾(٢٣).

وخطاب التحبب، كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا﴾(٢٤).

وخطاب التعجيز كما في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُــورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾(٢٥).

وهناك أيضًــا الخطاب العام المراد به الخصــوص والخاص المراد به العام، وخطاب النوع، وخطاب الجنس البشري، ويدل تعدد الخطاب على التأثير في المخاطب وتحقيق المراد، ولا يمكن أن يكون الخطاب القرآني عاما موحدا، فليس هذا من الفصاحة أو البيان(٢٦). فيكون الخطاب متفرقًا ومختلفًا تبعًا للمواقف والاحوال.

ويظل الخطاب القرآني متواصــل العطاء دائم الإشــعاع يعطي ويعلم ويهدي ويلهم، مؤكدا عظمة التواصــل بين القرآن والإنسان، في رحلة الحياة المستمرة وفي مسيرة الإنسان من الماضي إلى المستقبل(٢٧).

كما قد تتفاوت لغة الخطاب القرآني بين اللين والشدة، فتارة نرى خطابًا لينًا يسيراً يراعي حال المخاطب كما في خطاب الله عز وجل لنبي الله موسى في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصــاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسـى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾(٢٨)، وقد يكون خطابًا شــديدًا مراعاة لعظم الموقف كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسـالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾(٢٩).

ثانيا: بيان علامات و خصائص أئمة الطغيان في القرآن الكريم

كثيرا ما يكون اناس يؤمنون بالحق الذي يكفر به الطغاة، ويودون ان يؤمن به الطغاة العصـــاة من أهل الجبروت والباطل ولكنهم لا يسـتطيعون أن يجهروا بذلك، فما اصـعب كلمة الحق أمام الطغاة الفراعنة، فيؤمنون بالحق ويكتمون ذلك الإيمان في انفسهم خوفا من جبروت الطغاة، وتتضاءل قوة الطغاة في نفوس المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم فيصـــدعون بالحق رحمة بالداعي المغلوب وبالمدعو المغالب، وهذا ما حصـــل من مؤمن آل فرعون، وهكذا فأن أهل الباطل تكون الرحمة منزوعة من قلوبهم وبخاصـة فيما يعارض مصـالحهم، وبخاصـة مع أهل الحق، فإن القسوة والغلظة تكون ملازمة لهم في معاملاتهم(٣٠).

فأكثرهم لا يُحكمون كتاب الله وهو بين أيديهم، إنما اســتبدلوا الذي هو ادنى بالذي هو خير فحكموا القوانين، واعرضوا عن كتاب رب العالمين واتبعهم المحكومون الا القليل، فهم يستبيحون المحارم وكثيرا من المعاصي(٣١).

المطلب الثاني: خطاب القرآن الى أئمة الطغيان

لقد حفل كتاب الله عز وجل بأنواع مختلفة من الخطاب ومن تلك الانواع ما كان موجه الى الطغاة وقد شــغل حيزًا كبيرًا تبعًا للسياق الذي جاء فيه و سنتناول تلك الخطابات على النحو التالي:

أولًا/ خطاب القرآن الى أبليس

وإمام الطغاة والتكبر والتجبر هو أبليس حيث نجد خطاب الله عز وجل موجه اليه في كثير من المواضع في القرآن الكريم فكان أول كيان متمرد عاصي لأوامر الله عز وجل خارج عن طاعة الله فاستحق بذلك لقب إمام الطغاة قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤)﴾ [٣٢].

يخاطب الله عز وجل ابليس، قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين، فأجاب ابليس بعد ان كان تائها في حب النفس المقتم وغارقا في بحر الغرور المظلم فأجاب بوقاحة قائلا لم اكن لأسجد لبشرا خلقته من صلصال من حمأ مسنون، فأين النار المضيئة من التراب الاسود ونتيجة لحب النفس والغرور نسى بركات التراب الذي هو منبع كل بركة وخير، وجهل اسرار الخليقة، وكنتيجة طبيعية لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد ان اصبح غير لائق لأن يكون في درجة الملائكة وفي درجة صفوفهم، فجاء الخطاب الالهي مقرعًا قال فأخرج منها فأنك رجيم[٣٣].

وقوله تعالى: (فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[٣٤]، أختلفت الاقوال في معنى الخروج فقَالَ بَعْضُهُمْ: اخرج من السماء إلى الأرض. وقَالَ بَعْضُهُمْ: اخرج من الجنة، وقَالَ بَعْضُهُمْ: اخرج من الأرض إلى جزائر البحر. وجائز أن يقال: اخرج من كذا: أي: تحول من مكان كذا إلى مكان كذا على حقيقة الخروج. أو اخرج من صورة الملائكة إلى صورة الأبالسة. والرجيم: الملعون أو ما يرجم بالكواكب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾[٣٥]، طرد عن رحمته إلى يوم الدِّين، حتى لا يهتدي إلى دين الله وهداه، ثم يوم الدِّين له العذاب الدائم واللعنة القائمة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾[٣٦] ، "لعن اللعين، وطرد عن رحمته إلى يوم الدِّين؛ أي: لا تدركه الهداية؛ لأن الهداية في الدنيا إنما تدركه برحمته، والرحمة في الآخرة هي العفو عما لزمه؛ ووجب عليه. ذكر مثل هذا على اختلاف الألفاظ، ومعلوم أن هذه المخاطبات معه – لم تكن معه مرارًا؛ ولكن بمرة واحدة" [٣٧].

وقال في موضع آخر حين خاطب الله عز وجل ابليس حين امتنع عن السجود ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[٣٨]. على وجه التقريع له والتهجين لفعله، ثم قال له مخاطبًا بلفظ الاستفهام قاصدًا الانكار " استكبرت" يا ابليس اي طلبت التكبر بامتناعك من السجود له " ام كنت من العالين" الذين يتكبرون ويتجبرون على الخلق ويعلون عليهم[٣٩].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)﴾[٤٠].

"فبين أولا أنهم لم يدعوا إلى السجود له لمادته الأرضية التي سوي منها ، وإنما دعوا إلى ذلك لما سواه ونفخ فيه من روحه الخاص به تعالى الحاملة للشرف كل الشرف والمتعلقة لتمام العناية الربانية ويدور أمر الخيرية في التكوينيات مدار العناية الإلهية لا لحكم من ذواتها فلا حكم إلا الله . ثم بين ثانيا لما سأله عن سبب عدم سجوده بقوله : " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي " أنه تعالى اهتم بأمر خلقته كل الاهتمام، واعتنى به كل الاعتناء حيث خلقه بكلتا يديه بأي معنى فسرنا اليدين ، وهذا هو الفضل فأجاب لعنه الله بقوله : " أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين " فتعلق بأمر النار والطين، وأهمل أمر تكبره على ربه كما أنه في هذه السورة سئل عن سبب تكبره على ربه إذ قيل له : " ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك " فتعلق بقوله : " أنا خير منه " الخ ، ولم يعتن بما سئل عنه أعني السبب في تكبره على ربه إذ لم يأتمر بأمره. بلى قد اعتنى به إذ قال : " أنا خير منه " فأثبت لنفسه استقلال الآنية قبال الآنية الالهية التي قهرت كل شيء، فاستدعاه ذلك إلى نسيان كبريائه تعالى ووجد نفسه مثل ربه وان له استقلالا كاستقلاله"[٤١].

ثانيًا/ خطاب القرآن الى فرعون

ومن تلك الخطابات ما كان موجهًا الى فرعون، فقد قال الله عز وجل مخاطبًا فرعون ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤٢]، وهذا الكلامُ يحتملُ أَنْ يكون هذا الكلامُ معنَى حاله وصورةَ خِزْيه وهذا عَلى جهة التوبيخ له، والإعلان بالنقمةِ منه، وهذه الآيةُ نصٌّ في ردّ توبة المعاين ويحتملُ أن يكونَ مِنْ مَلَكٍ مُوَصِّلٍ عن اللَّه، أَو كيف شاء اللَّه[٤٣].

أن الله سبحانه إذا رد الكافرين في الرجعة لينتقم منهم لم يقبل لهم توبة ، وجروا في ذلك مجرى فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[٤٤]، قال الله سبحانه وتعالى له : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين " فرد الله عليه إيمانه ولم ينفعه في تلك الحال إقلاعه وندمه ، وكأهل الآخرة الذين لا يقبل الله لهم توبة ولا ينفعهم ندم، لأنهم كالملجئين إذ ذاك إلى الفعل، ولأن الحكمة تمنع من قبول التوبة أبدا ويوجب اختصاص بعض الأوقات بقبولها دون بعض[٤٥].

ثالثًا/ خطاب القرآن الى الكفار بصورة عامة

والمقصود من خطاب القرآن للكفار ما صدر من الله سبحانه وتعالى من خطاب تجاه الكفار، ومن ذلك الخطاب ما ورد بلفظ يا ايها الذين كفروا مرة واحدة في سورة التحريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤٦]. أي يقال مخاطبًا إياهم لا تعتذروا اليوم، وذلك حين يعاينون النار وشدت حرارتها؛ لأنه قد قدم إليهم الإعذار والإنذار فلا ينفعهم الاعتذار؛ لأنه غير مقبول بعد دخول النار "إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" يعني أن أعمالكم السيئة التي كنتم تعملونها في حياتكم الدنيا ألزمتكم العذاب[٤٧]. وهو

خطاب على جهة التوبيخ بذهاب وقت الاعتذار، وزال نفعه ولم يبق الا الجزاء على الاعمال في يوم القيامة، وانتم لم تقدموا لأنفسكم الا التكذيب والعناد والكفر بآياته، ومحاربة رسل الله واوليائه[٤٨].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (١٠٧) قالَ اخْسَـؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾[٤٩] ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة: أن أهل النار يدعون ربهم فيها فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا إلى ما لا يرضيك بعد إخراجنا منها فإنا ظالمون، وأن الله يجيبهم مخاطبًا بقوله (اخسئوا فيها ولا تكلمون) أي امكثوا فيها خاسـئين: أي أذلاء حقيرين صـاغرين ، لأن لفظة اخسـأ إنما تقال للحقير الذليل. فقوله (اخسـئوا) أي ذلوا فيها ماكثين في الهوان والصغار[٥٠].

ثم يخاطبه فيقول له " ذق إنك أنت العزيز الكريم " على وجه التهجين له بما كان يدعي له مما ليس به أي أنت كذلك عند نفسك وقومك، ويجوز أن يكون على معنى النقيض ،كأنه قيل: إنك أنت الذليل المهين إلا أنه قيل : على تلك الجهة للتبعيد منها على وجه الاستخفاف به. وقيل إن الآية نزلت في أبي جهل ، وقد كان قال : (أنا أعز من بها وأكرم) – ذكره قتادة – وقيل المعنى أنت الذي كنت تطلب العز في قومك والكرم بمعصية الله . وقيل المعنى: إنك أنت العزيز في قومك ، الكريم عليهم ، فما أغنى عنك[٥١] .

الخاتمة والنتائج

١) ان خطابات في القران تارة تكون لينة يسـيرة عندما تكون موجهة الى المؤمنين وتارة تكون قاسـية عندما تكون موجهة الى العصاة والطغاة.
٢) ان خطاب القرآن الكريم للقلوب والعقول من أجل تعليمها التواضـع وعدم التكبر والغرور والانقياد لأوامر الله عزل وجل وعدم الميل عنها.
٣) ان الخطاب القرآني قد يكون خاص وقد يكون عام.
٤) لم يقتصر الخطاب على أهل الدنيا وانما تجاوز ذلك فشمل أهل الاخرة من المؤمنون في الجنة والكافرين الذين هم في النار.
٥) الجانب الخطابي في القرآن يدعوا الى الفضـائل العالية والمطالب السـامية والتشـريعات الهادية الى كل خير واجتناب كل شر.

الهوامش

---

[١] الفراهيدي، العين: ٢٢٢/٤

[٢] الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص: ٢٦٥/١

[٣] ظ: ابي شهبة، طبقات الشافعية: ٨٠/٢

[٤] ظ: أبو الفضل، لسان العرب: ٢٥/١٢.

[٥]الجرجاني، التعريفات: ٣٥/١.

[٦] ظ: الفراهيدي، العين:٤٣٥/٤.

[٧]الجرجاني، التعريفات: ١٤١/١.

[٨] البقرة/١٥.

(٩)ظ: القيرواني، التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه: ٢٧٢/١-٢٧٣، والعسكري، الوجوه والنظائر: ٣١٥/١-٣١٦.

[١٠] طه/ ٤٣.

[١١] الصافات/٣٠.

[١٢] الحاقة/١١.

(١٣) ظ: القيرواني، التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه: ٢٧٢/١-٢٧٣، والعسكري، الوجوه والنظائر: ٣١٥/١-٣١٦.

[١٤] النجم/١٧

[١٥] ظ: القيرواني، التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه: ٢٧٢/١-٢٧٣، والعسكري، الوجوه والنظائر: ٣١٥/١-٣١٦.

[١٦] ظ: بن نبي، الظاهرة القرآنية: ١٨٧/١.

[١٧] الحج/١.

[١٨] ظ: البوطي، من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل: ٢٢١/١.

[١٩] ظ: جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، خصائص السور: ٥٦/٧.

[٢٠] ظ: عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ٤٣٧/١-٤٣٨

[٢١]العاملي، ثمار الافكار: ص٢٤.

[٢٢] الدخان/٤٩.

[٢٣]المائدة/٤١.

[٢٤] مريم/٤٤.

[٢٥] البقرة/٢٣.

[٢٦]ظ: محمد فاروق النبهان، المدخل إلى علوم القرآن الكريم: ٢٤٧/١

[٢٧]محمد فاروق النبهان، المدخل إلى علوم القرآن الكريم:١٥/١

[٢٨] القصص/٣١.

[٢٩] المائدة/٦٧.

(٢٨) ظ: عبدالله قادري الاهدل، السابق الى العقول: ٢١٧/١.

(٢٩) ظ: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، جامع تراث العلامة الألباني في المنهج والاحداث الكبرى : ٢٧٤/٥.

(٣٢) الحجر/٣٢-٣٤.

(٣٣) ظ: الشيراوي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦٣/٨.

(٣٤) الحجر/٣٤.

(٣٥) الحجر/٣٥.

(٣٦) الحجر/ ٣٦-٣٨.

(٣٧)الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة: ٤٣٨/٦-٤٣٩.

(٣٨) ص/ ٧٥.

(٣٩) ظ: الطوسي، التبيان: ٨/ ٥٨١.

(٤٠) الاعراف/ ١٢.

(٤١)الطباطبائي، الميزان: ٢٦/٨.

(٤٢) يونس/ ٩١.

(٤٣) ظ: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٣/ ٢٦٤.

(٤٤) يونس/ ٩٠.

(٤٥) ظ: الميانجي، مواقف الشيعة: ٢٧١/١.

(٤٦) التحريم/ ٧.

(٤٧) ظ: الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: ٣١٦/٤.

(٤٨) ظ: السعيدي، تيسير الكريم الرحمان في كلام المنان: ص٨٧٤.

(٤٩) المؤمنون/ ١٠٧-١٠٨.

(٥٠) ظ: حكمت بن بشير بن ياسين، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: ٤٤١/٣.

(٥١)الطوسي، التبيان: ٢٤/٩.

ثَبَتُ المَصَادِرِ والمَرَاجِعِ

خيرُ ما نبتدئُ به: القرآن الكريم

١. أبو الفضل: محمد بن مكرم بن على(ت: ٧١١هـ) لسان العرب، دار صادر، ط٣، ١٤١٤ هـ، بيروت.

٢. أبي شهبة: بكر بن أحمد بن قاضي، طبقات الشافعية ، عالم الكتب، تح: د.الحافظ عبد العليم خان، ط١، ١٤٠٧هـ، بيروت.
٣. بن نبي: مالك بن الحاج عمر بن الخضر (ت: ١٣٩٣هـ)، الظاهرة القرآنية، تح: (إشراف ندوة مالك بن نبي)، دار الفكر، ط٤، ١٤٢٠ هـ، دمشق.
٤. البوطي: محّمد سَعيد رَمضان ، من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ بيروت.
٥. الثعالبي: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت: ٨٧٥هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.
٦. الجرجاني: علي بن محمد (ت: ٨١٦هـ)، التعريفات، تح: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية ، ط١٤٠٣،١هـ، بيروت .
٧. جعفر شرف الدين: الموسوعة القرآنية، خصائص السور، تح: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١٤٢٠،١هـ، بِيروت.
٨. الحريري: أبو محمد القاسم بن علي (ت: ٥١٦هـ)، درة الغواص في أوهام الخواص، تح: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤١٨هـ، بيروت.
٩. حكمت بن بشير بن ياسين: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ ، المدينة النبوية.
١٠. الخازن: علاء الدين علي بن محمد (ت: ٧٤١هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية –ط١، ١٤١٥ هـ بيروت.
١١. السعيدي: عبد الرحمن بن ناصر (ت: ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمان في كلام المنان، تح: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، بيروت.
١٢. شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، جامع تراث العلامة الألباني في المنهج والاحداث الكبرى، مركز النعمان للبحوث الاسلامية وتحقيق التراث والترجمة، ط١، اليمن، ١٤٣٢هـ.
١٣. الشيراوي: ناصر مكارم، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار احياء التراث العربي.

١٤. الطباطبائي: محمد حسين (ت: ١٤١٢هـ)، الميزان، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة.
١٥. الطوسي: ابو جعفر محمد (ت:٤٦٠هـ)، التبيان، تح: أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الاعلام الاسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ.
١٦. العاملي: علي الكوراني، ثمار الافكار، دار الهدى للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٥هـ، قم.
١٧. عبدالله قادري الاهدل، السابق الى العقول، منشور على موقع وزارة الاوقاف السعودية.
١٨. عبد السلام أحمد الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ١٤٢٢ هـ، حلب.
١٩. العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت: نحو ٣٩٥هـ)، الوجوه والنظائر، تح: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٨ هـ، القاهرة.
٢٠. الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت:١٧٠هـ)، العين، تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٢١. القيرواني: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة (ت: ٢٠٠هـ)، التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، تح: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م.
٢٢. الماتريدي: محمد بن محمد بن محمود (ت: ٣٣٣هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ، تح: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦ هـ، بيروت.
٢٣. محمد فاروق النبهان: المدخل إلى علوم القرآن الكريم، دار عالم القرآن، ط١، ١٤٢٦ هـ، حلب.
٢٤. الميانجي: الاحمدي، مواقف الشيعة، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ط١، ١٤١٦.

Sources and References

The best place to begin: The Holy Qur'an

1. Al-Shirawi: Nasser Makarem, The Ideal in Interpreting the Revealed Book of God, Dar Ihya' al-Turath al-Arabi.
2. Abi Shaba: Bakr ibn Ahmad ibn Qadi, Classes of the Shafi'is, Alam al-Kutub, ed. Dr. Al-Hafiz Abd al-Aleem Khan, 1st ed., 1407 AH, Beirut.

3. Ibn Nabi: Malik ibn al-Hajj Umar ibn al-Khidr (d. 1393 AH), The Qur'anic Phenomenon, ed. (Supervised by the Malik ibn Nabi Symposium), Dar al-Fikr, 4th ed., 1420 AH, Damascus.
4. Al-Farahidi: Abu Abd al-Rahman al-Khalil ibn Ahmad (d. 170 AH), Al-Ain, ed. Dr. Mahdi al-Makhzoumi, Dr. Ibrahim al-Samarra'i, Dar and Library of al-Hilal.
5. Al-Khazin: Ala' al-Din Ali ibn Muhammad (d. 741 AH), Lubab al-Ta'wil fi Ma'ani al-Tanzil, edited by Muhammad Ali Shahin, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 1st ed., 1415 AH, Beirut.
6. Abu al-Fadl: Muhammad ibn Makram ibn Ali (d. 711 AH), Lisan al-Arab, Dar Sadir, 3rd ed., 1414 AH, Beirut.
7. Muhammad Faruq al-Nabhan: Introduction to the Sciences of the Holy Qur'an, Dar 'Alam al-Qur'an, 1st ed., 1426 AH, Aleppo.
8. Al-Bouti: Muhammad Sa'id Ramadan, From the Masterpieces of the Qur'an - Scientific and Literary Reflections on the Book of God Almighty, Al-Risala Foundation, 1420 AH, Beirut.
9. Al-Mayanji: Al-Ahmadi, Shia Positions, Islamic Publishing Foundation affiliated with the Association of Teachers in Holy Qom, 1st ed., 1416 AH.
10. Hikmat ibn Bashir ibn Yasin: The Encyclopedia of Authentic and Authentic Interpretation of Hadith, Dar Al-Ma'athir for Publishing, Distribution, and Printing, 1st ed., 1420 AH, Medina.
11. Ja'far Sharaf al-Din: The Qur'anic Encyclopedia, Characteristics of the Surahs, trans. Abd al-Aziz ibn Uthman al-Tuwaijzi, Dar al-Taqrib Bayn al-Madhahib al-Islamiyyah, 1st ed., 1420 AH, Beirut.
12. Al-Tusi: Abu Ja'far Muhammad (d. 460 AH), Al-Tibyan, trans. Ahmad Habib Qasir al-'Amili, Islamic Media Office, 1st ed., 1409 AH.
13. Shadi bin Muhammad bin Salem Al-Numan, Collector of the Heritage of Al-Albani in Methodology and Major Events, Al-Numan Center for Islamic Research, Heritage Investigation and Translation, 1st ed., Yemen, 1432 AH.
14. al-Tabataba'i: Muhammad Husayn (d. 1412 AH), al-Mizan, Publications of the Group of Teachers in the Seminary, Holy Qom.
15. al-Askari: Abu Hilal al-Hasan ibn Abdullah (d. c. 395 AH), al-Wujuh wa al-Naza'ir, trans. Muhammad Uthman, Library of Religious Culture, 1st ed., 1428 AH, Cairo.
16. Abdul Salam Ahmed Al-Raghib: The Function of the Artistic Image in the Qur'an, Fussilat for Studies, Translation and Publishing, 1st ed., 1422 AH, Aleppo.
17. Al-Qayrawani: Yahya ibn Salam ibn Abi Tha'labah (d. 200 AH), Al-Tasrif li-Tafsir al-Qur'an li-Ma'rifi .
18. Abdullah Qadri Al-Ahdal, the first to reach the minds, published on the website of the Saudi Ministry of Endowments.

19. Al-Jurjani: Ali ibn Muhammad (d. 816 AH), Al-Ta'rifat, edited and authenticated by a group of scholars under the supervision of the publisher, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1st ed., 1403 AH, Beirut.
20. Al-Maturidi: Muhammad ibn Muhammad ibn Mahmud (d. 333 AH), Tafsir Al-Maturidi (Interpretations of the Sunnis), edited by Dr. Majdi Basloum, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1st ed., 1426 AH, Beirut.
21. Al-Sa'idi: Abd Al-Rahman ibn Nasser (d. 1376 AH), Taysir Al-Karim Al-Rahman fi Kalam Al-Mannan, edited by Ibn Uthaymeen, Al-Risalah Foundation, 1421 AH, Beirut.
22. Al-Amili: Ali Al-Kurani, The Fruits of Thoughts, Dar Al-Huda for Printing and Publishing, 1st ed., 1425 AH, Qom.
23. Al-Tha'alibi: Abu Zayd Abd Al-Rahman ibn Muhammad ibn Makhlouf (d. 875 AH), The Beautiful Jewels in the Interpretation of the Qur'an, trans. Sheikh Muhammad Ali Mu'awwad and Sheikh Adel Ahmad Abd Al-Mawjoud, Dar Ihya' Al-Turath Al-Arabi - Beirut, 1st ed., 1418 AH.
24. Al-Hariri: Abu Muhammad Al-Qasim ibn Ali (d. 516 AH), The Pearl of the Diver in the Delusions of the Elite, trans. Arafat Matarji, Cultural Books Foundation, 1st ed., 1418 AH, Beirut.